بسم الله الرحمن الرحيم

إن الله تعالى جعل هذه الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وجعل الابتلاء سنة من سننه الربانية؛ وما أكثر ما تفيض به الحياة الدنيا من ابتلاءات وشدائد، والبلاء يكون بالخير والشر، قال تعالى:{وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}[]، فالله تعالى يبلو عبده بالخير ليمتحن شكره، ويبلوه بالشرور التي يكرهها ليمتحن صبره.

والرِّضا بالبلاء يجعل المؤمنَ دائم الاتصال بالله، فهو مُتَّصِلٌ بربه في السراء والضراء وفي جميع أحواله، فلا يعرف الجَزَعَ ولا القنوط؛ لذا قال صلى الله عليه وسلم: ((عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ: إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))، ومن فوائد البلاء أيها الإخوة:

1 – أنه سبب لمغفرة الخطايا وغسل الذنوب، يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا مَرِضَ، أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مَلاَئِكَتِهِ فَيَقُولُ: يَا مَلاَئِكَتِي: أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي بِقَيْدٍ مِنْ قُيُودِي، فَإِنْ قَبَضْتُهُ أَغْفِرْ لَهُ، وَإِنْ عَافَيْتُهُ فَجَسَدٌ مَغْفُورٌ لَهُ لَا ذَنْبَ لَهُ))، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ (أي تعب) وَلَا وَصَبٍ (أي مرض) وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ))، ودخل صلى الله عليه وسلم على أم السائب رضي الله عنها فقال: ((مالَكِ يا أمَّ السائبِ تُزَفْزِفينَ (أي ترتعدين)؟ قالت: الحمَّى لا بارك اللهُ فيها، فقال: لا تسُبِّي الحُمَّى فإنها تُذهِبُ خطايا بني آدمَ كما يُذهبُ الكِيرُ خبثَ الحديدِ))، وقَالَ صلى الله عليه وسلم: ((مَا يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نفسِهِ ووَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى الله تَعَالَى وَمَا عَلَيهِ خَطِيئَةٌ))، عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ صلى الله عليه وسلم: ((مَا اخْتُلِجَ عِرْقٌ، وَلَا عَيْنٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَدْفَعُ اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ))–السلسة الصحيحة–أي ما اضطرب عرق من عروق البدن أو العين إلا بذنب وعليه:{وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} [الشورى: 30]، وما يَدْفَعُ الله عنه أي عن العرق أو عن صاحبه، أكثر{وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}[الشورى: 30] فإن ثبت أن الأمراض مكفرات فكيف تكون عقوبات. نقول: العقوبة تكفير، كأنه تعالى يقول قاصصتك بشيء من ذنوبك لتنتبه من رقدتك وأعفوا عن الكثير.

2- البلاء يرفع العبد درجات عالية في جنة الله تعالى، كما يفعل بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام والصلحاء من عباد الله، فعن مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال: ((قلتُ يا رسولَ الله أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاءً؟ قالَ: الأَنبياءُ ثمَّ الأَمثلُ فالأَمثلُ يُبتلَى المرءُ علَى حسَبِ دينِهِ، فإن كانَ في دينِهِ صلباً اشتدَّ بلاؤُهُ، وإن كانَ في دينِهِ رقَّةٌ ابتليَ علَى قدرِ دينِهِ، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتَّى يترُكَهُ يمشي علَى الأرضِ وما علَيهِ خطيئةٌ))، فإذا أحب الله تعالى عبداً ابتلاه ليرفع درجته في الجنة، يَقُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ، ابْتَلاهُ اللهُ فِي جَسَدِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ ثُمَّ صَبَّرَهُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يُبَلِّغَهُ مَنْزِلَتَهُ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)).

3- البلاء يعجل العقوبة للعبد في الدنيا لتسقط عنه يوم القيامة، ومما لا شك فيه أنه لا يخلو عبد من ذنب، فمن ذا الذي ما ساء قط، ومن له الحسنى فقط، هنا يأتي البلاء ليرد العبد إلى ربه ويرجع إلى خالقه ويجدد التوبة والعهد مع الله كما جاء في الأثر ((إن الله تعالى يبتلى عبده وهو يحبه ليسمع تضرعه وبكائه))، قال تعالى:{وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}[] يقول صلى الله عليه وسلم: ((إذا أرادَ اللهُ بعبدِهِ الخيرَ عجَّلَ لهُ العقوبةَ في الدُّنيا، وإذا أرادَ بعبدِهِ الشَّرَّ أمسَكَ عنهُ بذنبِهِ حتَّى يوافى بِهِ يومَ القيامةِ)).

4- أن الله تعالى ضمن الجنة لأهل البلاء وأعظم لهم الأجر فيها ولم يحدده لهم في الدنيا ليرى منهم الرضا والصبر الجميل، قال الله تعالى: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[] وقال علي رضي الله عنه: (كل مطيع يكال له كيلاً ويوزن له وزناً إلا الصابرون، فإنه يحثى لهم حثياً)وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : (يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب).

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((إذا ماتَ ولَدُ العبدِ قالَ اللهُ لملائِكتِهِ: قبضتم ولدَ عبدي، فيقولونَ نعم، فيقولُ قبضتُم ثمرةَ فؤادِهِ، فيقولونَ نعم فيقولُ ماذا قالَ عبدي، فيقولونَ حمِدَكَ واسترجعَ، فيقولُ اللهُ ابنوا لعبدي بيتاً في الجنَّةِ وسمُّوهُ بيتَ الحمْدِ))، وقال صلى الله عليه وسلم: ((يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةُ))، وقال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ اللهَ تعالى يقول: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبدِي بحبيبتَيْهِ أي عينيه فَصبرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ)).

5-ومن فوائد البلاء صلاة الله عليهم ورحمته وهدايته إلى صراطه المستقيم، قال تعالى:{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ

قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}.

6- أنَّ اللهَ تعالى يكونُ قريباً من المبتلى يرحمُه ويجيبُ دعاءَه ويُثيبُ زوَّارَه والقائمين عليه، ولذلك تحتفي الملائكةُ بعائدِ المريضِ، بل ويعتبُ سبحانَه على من تركَ عيادة المريض؛ قَالَ صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِى فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ))

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ مَعَ سَلْمَانَ رضي الله عنه وَعَادَ مَرِيضاً فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: أَبْشِرْ! فَإِنَّ مَرَضَ الْمُؤْمِنِ يَجْعَلُهُ اللهُ لَهُ كَفَّارَةً وَمُسْتَعْتَباً، وَإِنَّ مَرَضَ الْفَاجِرِ، كَالْبَعِيرِ عَقَلَهُ أَهْلُهُ، ثُمَّ أَرْسَلُوهُ فَلَمْ يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ، وَلَمْ يَدْرِ لِمَ أَرْسَلُوهُ))، أي أن المرض يكون سبباً في محاسبة نفسه، ورجوعه عن الإساءة، ويقظته من غفلته، بخلاف الفاجر وغير المؤمن، فإن مرضه لا ينفعه، وهو لا يزال مصراً على المعصية، ولذلك هو كالبعير الذي أمسكه وربطه أهله ثم أرسلوه فلا يدر لم أمسك ولم أرسل، والعاصي وغير المؤمن إذا مرض لا يدر لماذا مرض وما هي الحكمة من المرض ولا يحتسب أجراً ولا يرجع إلى الله عز وجل، وهنا قد يتبيَّنُ لنا بعض الحِكَم في مرضِ كثيرٍ من المسلمينَ في آخرِ حياتِهم وأن الله يريد بعبدِه المؤمن الخيرَ، فأهلُه بينَ الهمومِ والأحزانِ والقيام على شؤونه مأجورون وهو بمرضه وصبره مأجور ويُهيَّأُ لدخول الجنان.

7- أنَّ صاحبَه تُكتبُ له جميعُ أعمالِه التي كانَ يَعملُها وهو صحيحٌ، فتستمرُ حسناتُه على ما كانَ يعملُ وهو مُعافى لا ينقصُ منها شيءٌ. يقول صلى الله عليه وسلم:((إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ صَحِيحًا مُقِيماً))، ويقول أيضاً: ((إِذَا ابْتَلَى اللهُ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ بِبَلاَءٍ فِي جَسَدِهِ، قَالَ اللهُ لِلْمَلَكِ الَّذِي يَكْتُبُ عَمَلَهُ: اكْتُبْ لِعَبْدِي فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مِثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ مِنَ الْخَيْرِ مَا دَامَ مَحْبُوساً فِي وَثَاقِي، حَتَّى أَقْبِضَهُ-أي يموت في مرضه-أَوْ أُطْلِقَهُ، فَإِنْ شَفَاهُ، غَسَلَهُ وَطَهَّرَهُ، وَإِنْ قَبَضَهُ، غَفَرَ لَهُ وَرَحِمَهُ)).

وكلّما عظُمَت المصيبة كلّما عظُم الأجر، قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاَءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ) وينبغي للعبد أن يستشعر الأجر لتهون عليه البلايا، وأن يحمد ربه عند البلاء، ويسترجع ليخلف الله تعالى له خيراً مما فقد، وأن يلح على ربه في الدعاء أن يكشف عنه البلاء ويسأل ربه العافية.

يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:(دَعْوَةُ ذِي النُّونِ الَّتِي دَعَا بِهَا فِي بَطْنِ الْحُوتِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ فِي كُرْبَةٍ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ)

ولعل سائلاً يسأل: لماذا لا تصيب الكوارث بلاد الكفار الذين فيهم من الشرور ما تترفع عنه الحيوانات؟ والجواب خذه من كتاب الله تعالى: {لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}[آل عمران: 196-197] والمسلمون والذين رضوا بأقدار الله{لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ}[آل عمران: 198] فالكافر قد يعجل الله له العقوبة وقد يؤخرها ليوم القيامة{وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} []{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}[] فالدنيا دار بلاء وليست دار جزاء{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}[آل عمران: 186]

والحذر الحذر من الوقوف عند التفسيرات المادية فقط للزلازل وأنواع البلاء، وما أحوجنا أن نخاف أن ينزل بنا – لا قدّر الله– ما نزل بغيرنا من البلاء، فإننا رغم ما نرى من الأحداث المروعة الشديدة لايزال كثير منا على ما هو عليه من ترك الصلاة وهجر المساجد والعكوف على الدنيا وتقديمها على كل شيء! فهذه الابتلاءات لها منافذ على القلب تحيي فيه الاعتبار إلا من طمس الله على قلبه، أفلم يأن للمسلم أن يتوب إلى الله توبةً نصوحًا، وأن يدرك أن هذه المصائب التي يجريها علينا رب العزة ما هي إلا تنبيه وإنذار للناس ليستيقظوا من سباتهم ويفيقوا من غفلتهم، وليعلموا علم اليقين أن الله تعالى يرينا بها قدرته القاهرة الباهرة، وأن يقول كل واحد بلسان حاله عرفنا قدرك يا رب عرفنا قدرك يا عظيم، عوائل كاملة كانوا بالليل لهم أحلام وطموحات وناموا على أحلامهم، لكنهم استيقظوا وهم في عالم البرزخ!

فازرع في قلبك الخوف، فالخوف شجرة طيبة لو نبتت في القلب وامتدت فروعها في الجوارح لأثمرت عملاً طيباً وقولاً حسناً.

زلزال سوريا وتركيا والمغرب واعصار ليبيا دروس وعظة تقول لا شيء مضمون في هذه الدنيا فاركب سفينة النجاة فلا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، وتذكروا الزلزال الأكبر الذي سيضرب الأرض من قاعها لا من قشرها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين